التجديد فى الأدب

للأستاذ أحمد أمين

٢

عرضت فى مقالى السابق للبحث فى الألفاظ وما تتطلب من جِدة ؛ واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد فى العبارة . وأعنى بالعبارة الجملة التى يؤدَّى بها المعنى على اختـــلاف ألوانها ، من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية .

ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما الى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية . فالأدب الجاهلى — مثلا — صورة صادقة لمعيشة العربى فى الجاهلية ؛ اذا بكى ، فانما يبكى الأطلال والمنزل الداثر والرسم العافى . واذا رحل ، فعلى ناقة أو بعير . واذا أعجبه نبت ، فالشيح والقيصوم ، والخزامى والعَرار . واذا ذكر النسيم ، فصبا نجد . واذا حن الى مكان ، فموطنه من الرقمتين ورَضوى وثَبير . كذلك كان فى تشبيهاته واستعاراته وأمثاله : يستوحى ما يحيط به ، ويستلهم ما يقع حسه عليه . فقال : استنوق الجمل ، وهو أعز من الأبلق العقوق ، وأبدت الرغوة عن الصريح ، وهم أكثر من الحصى ، وهو ليث غابة ، وما تُحَلُّ حَبْوته ، وألقى حبله على غاربه ، وقصُرت الأعنة ، واشتجرت الأسنة ، وزلزلت الأقدام من رنين القِسِى ، وقراع الرماح ، وطحنهم طحن الرحى ، ومطله مطل نعاس الكلب ، وكالباحث عن حتفه بظلفه ، وحط راحلته ، وضرب أوتاده ، وألقى عصاه ، والقافلة تسير والكلاب تنبح . الى كثير من أمثال ذلك — فهم فى كل هذا يصفون حياتهم ، ويشتقون منها تشبيهاتهم ، ويضربون منها أمثالهم .

وتتابع أدباء العرب بعدُ يزيدون فى التعبير ، تبعاً لتغير المعيشة الاجتماعية ، وتقدمهم فى الحضارة . فقالوا : صندل الشراب وعنبره — وكأن أخلاقه سبكت من الذهب المصفى — ويكاد يسيل الظرف من أعطافه ، ويمازج الأرواح لرقته — قد دس له الغدْر فى المَلَق — وهو من صيارفة الكلام ، يتطفل على موائد الكتاب — وكأن ألفاظه قطع الرياض ، وكأن معانيه نسم الآصال . وهكذا كانت العبارات المحدثة فى العصر العباسى تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والأموية .

وقد جارى المؤلفون الأدباء : يدونون ما اخترعوا ، ويقيدون ما أبدعوا . فرأينا عبد الرحمن الهمذانى يجمع فى كتابه (الألفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية واسلامية ورأينا الحصرى يملأ كتابه (زهر الآداب) بفصول يعنونها « ألفاظ لأهل العصر » يجمع تحتها ما اخترعه أهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه أنيق . ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى كان خاتمتهم ابراهيم اليازجى فى كتابه « نجعـــة الرائد وشرعة الوارد » جمع فيه أحسن العبارات والألفاظ مما قال السابقون والمحدثون الى عصره .

وبعد ، فلو قارنا بين الأدب العربى الحديث ، والأدب الغربى فى هذا الباب ، أعنى باب العبارة ، وجدنا فى أدبنا العربى قصوراً ظاهراً ، وضعفاً بينا .

ذلك أن الأدب الغربى سايَر الزمن ، واعترف بكل ما حدث فيه ، واستمد منه ، على حين أن الأدب العربى الحديث أغمض عينه عن كل ما كان ، ولم يعترف بوجوده . نظر الأدب الغربى الى ماضيه وحاضره ومستقبله ؛ ولم ينظر الأدب العربى الا الى ماضيه . وزّع الأدب الغربى لفتاته لينظر نظرة شاملة وثبّت الأدب العربى عينيه فيما وراءه ، فلم ينظر الا الى قديمه ، فكان ناقصاً ، لا يسايرنا ولا يصفنا ولا يمس حياتنا ، وانما يمس حياة آبائنا .

اعترف الادب الغربى بالادب القديم فأخذ منه خيره ، واعترف بالدنيا الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها — رأى فى دنياه مخترعات ومستكشفات لاحد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطيارات وغواصات وغازات وأضواء وراديو ومالا يحصى كثرة . كل هذه الاشياء قلبت الحياة الاجتماعية رأسا

على عقب . فلماذا لا تقلب الأدب ؟ فأقبل الأديب عليها يتعرفها ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة ، فكان له منها ما أراد

ورأى الأديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل أعمال الانسان تحليلا علمياً دقيقا ، ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى وغضب ، فأخذ بحظ وافر منه واستعان به فى أدبه وتعبيراته حتى استطاع أحد الكتاب الفرنسيين (وهو مارسل بروست(Marcel Proust) أن يحلل ابتسامة سيدة فى ست صفحات ، ورأى نظما فى الحكم تقوم وأخرى تسقط وكان لهـــا من الأثر فى حياة الناس وعقليتهم مايخيل اليك معها أنهم أصبحوا بها خلقا آخر ، فجعل يتتبع هذه التغيرات ويقتبس منها ماشاء ذوقه الأدبى

كل هذا وأمثاله جعل الأدب الغربى يسير محاذيا لكل نظم الحياة ويشاركها فى رقيها واتجاهها ، إن استضاء الناس بمصباح كهربائى فالأدب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به ، وإن كان نظام الحكم ديمقراطيا فالأدب ديمقراطى ، والصور التى يصورها ديمقراطية ، ويتعمق السيكولوجى فى بحثه فيتعمق الروائى فى تحليل شخصيات روايته ، وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والأدب تســـير معاً ، لايخطو عنصر منها خطوة إلى الامام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على أن يحتذيه . أما الأدب العربى فيحارب مترا ليوزا بقوس وسهم ، ويضىء فى أدبه سراجا بزيت ، والناس اليوم قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائى بخير منه ، ويبكى الأطلال ولا أطلال ، ويحن إلى سلع ولا سلع ، ويستطيب الخزامى والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . من الحق أن نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظهر عاطفة حية وشعور قوى ، ولكن لا ننشئه . وإذا قلناه وجب أن نقول معه ما نحياه ونعيش فيه

إذا أنت لم تحم القـــديم بحادث
من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت فى العصر العباسى ، ولم تتقدم إلا قليلا بما اقتبس من الأدب الغربى ، والذى تتطلبه من التجديد فيها أن نستمد من حياتنا الواقعية ، ومن كل ما يحيط بنا جملا حية تلائم مافى نفوسنا ، وأن نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات والكنايات نستمدها من الحياة التى نعيشها ، والمخترعات التى نستخدمها ، وما وصلت اليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد

. . .

وقد عاق الأدب العربى الحديث عن الوصول إلى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها :

(١) ما سبقت الاشارة اليه من أن المخترعات ليس لها أسماء ، وأن أئمة اللغة لم يرضوا أن يستعملوا الكلمات الأجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية ، وتركوا الأدباء فى حيرة من أمرهم ، فكيف يستطيعون أن يستلهموها فى جملة لتكسب المعنى قوة ، وهم يفرون من التلفظ بها ، ويخشون من علماء اللغة استعمالها ، لذلك رضينا من الأدب بالعدول عنها جملة وتفصيلا ، حقيقة ومجازا . وبهذا سد أمام الاديب العربى باب من أوسع الابواب وأغزرها فائدة .

(٢) وسبب آخر من أهم الأسباب فى فقر الأدب العربى فى التعبير ، هو أن الادب العربى الحديث أدب أرستقراطى لا أدب شعبى ، وأعنى أرستقراطية العلم لا أرستقراطية المال ، ذلك أن الأدب الانجليزى أو الفرنسى أو الالمانى ، أدب شعب لا أدب طبقة خاصة — نعم قد يرقى الادب الانجليزى مثلا — فلا يفهمه إلا الراقون ، ولكن بجانبه أدب انجليزى شعبى ، لا يختلف عن أدب الخاصة فى ألفاظه وتراكيبه وان اختلف فى دقة المعنى وبساطته — أما الادب العربى فأدب خاص لطائفة المتعلمين تعلماً راقياً فحسب ، لا يشاركهم فيه العـــامة واشباه العامة ، وللعامة أدب بلدى خاص ، يستمتعون به فى أغانيهم ونكتهم وزجلهم ومواليا تهم — وحتى الخاصة ، لا يتذوقون الادب العربى إلا فى الكتب والمجلات والجرائد ، أما أحاديثهم وتنادرهم وفكاهاتهم فباللغة العامية ، وليست أمة من الأمم الحية الآن بين لغتها اليوميـة ولغتها الادبية من الفروق مابين اللغة العربية واللغة العامية .

نتج من هذه الظاهرة نقص كبير فى الأدب العربى الحديث ، لان استعمال الكلمات والعبارات فى البيت وعلى المائدة وفى

الشارع يكسبها حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة ، ولو اقتصر فى استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة ، لايهـــذبها الاستعمال ولا يرقيها الصقل اليومى . وحسبك دليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهى من أهم أركان الأدب لاتجد منها سائغا عذبا فى أدبنا العربى عشر معشار ماتجده فى الأدب العامى ، وأن النادرة تحكى بالعاميـة فتضحكك إلى أقصى حد ، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة ، وأن كثيراً من الألفاظ والتعبيرات العامية قد أفادها الاستعمال روحا قوية ، فاذا عبرت عنها بالعربية لم تجد لها من التعبير قوة العامية وحسن دلالتها على المعنى

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية مالا يقدر ، فقد أصبح الشعب كلها منتجاً أدباً وتعبيراً قويا ، وأصبح الحديث على المائدة وفى حجرة الجلوس وفى التمثيل والسينما يخرج أدبا جديداً ويحيى أدبا قديما ، والأمة كلها تتعاون فى الانتاج الأدبى ، هذا بتعبيره الرقيق ، وهذا بنكته ونوادره ، وهذا بقصته وأمثاله ، وهذا بشعره ، وهكذا

وليس كذلك الحال فى الأدب العربى ، فالأمثال والنوادر والحكايات باللغة العامية ، والأحاديث اليومية وقضاء كل شؤون الحياة باللغة العامية ، وليس للغة العربية إلا الكتاب وما إليه — ولذلك أصبح عندنا أدبان أدب أرستقراطى هو هذا الشعر والكتب التى تؤلف ، والمجلات والجرائد التى تنشر وأدب شعبى هو الزجل والاغانى والحواديت وما إليها ، وبين الأدبين فواصل كبيرة وحواجز متينة ، وفى هذا ضرر كبير على الأمة والأدب معا ، أما الأمة فلأن شعبها لا ينتفع بنتائج المتعلمين منها ، وأما الأدب فلأنه ليس أدبا صحيحاً ، إذ الأدب الصحيح هو ما كان ظلا لحياة الأمة الاجتماعية كلها لا لحياة طبقة خاصة منها

ولا أمل لحياة الأدب العربى من هذه الناحية إلا بازالة الحواجز القوية بين العاميـة والعربية ، على أى وجه يرضاه قادة الأمة ، ويحفظ للغـة العربية مكانتها من حيث هى لغـة الدين ورابطة الشعوب الشرقية . إذ ذاك تصبح اللغة حية ، والتعبيرات حية ؛ وإذ ذاك تزول الحيرة التى نعيش فيها الآن ، فانك تستعمل اللفظ العامى والعبارة العامية ، فلا تجد لهما نظيرا فى العربية ، وان وجدت لهما نظيراً فنظير ميت ليس فيه حياتهما . كنت أقرأ الآن فى جريدة فوجدت فيها كلمة « بعبع » وكنت أسمع فسمعت من يقول : انه بيت « مُبَهْوَأ » ومن يقول « رزق الهبل على المجانين » . ووجدتنى اذا أجهدت نفسى قد أعثر على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها . ولكن ليس فيها حياتها ، لأن الحياة وليدة الاستعمال ، وأريد الاستعمال الشعبى . وهذا أحد الأسباب فى أن مقالات الأستاذ فكرى أباظه ، والمجلات الهزلية ، والهزلية الجدية ، لها من الرواج فى أوساط الجماهير ما ليس لغيرها ، وتتفتح لهـا نفوس شعبية أكثر مما تتفتح للمقالات العربية الصرفة ؛ وترن الكلمة أو العبارة فى الأذن رنيناً دونه رنين العربية الكلاسيكية .

(٣) وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والأدب قوية متينة ، وان شئت فقل إنه ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب ، وأن الثقافة التى يتثقفها الأديب ينقصها — غالباً — قدر ضرورى صالح من المعلومات العلمية ، تجعله يستطيع أن يلم إلماماً ما بالمخترعات والمستكشفات ، ويستغلها فى أدبه . وهذا القدر يلقفه الأديب الأوربى فى بيته وفيما يقع فى يده من كتب ومجلات أولية ، ثم فى مدرسته . وأدباء الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلميـة استغلوها فى منتجاتهم ، فأصبحت هناك أنواع من الأدب ، ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التى تعتمد على الثقافات العلمية ، أخذها منهم الشعب واستساغها . أما برنامج الأديب العربى فقاصر من هذه الناحية كل القصور ؛ ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور .

وهناك أنواع من التجديد فى الأسلوب والموضوع والنثر الفنى والشعر والقصة وغيرها ، نعرض لها فيما بعد . ؟

□□□□□□□□□□□□

التجديد فى الادب

جاءنا بعض ردود على مقالة الأستاذ احمد أمين فى التجديد فى الادب ننشرها فى العـــدد التالى